الفلسفة البرغماتية

لم تكن كلمة برغماتية (Pragmatism) معروفة في اللغة الإنكليزية قبل (شارل بيرس- Sharles S. Peirce) المولود عام ١٨٣٩م، والمتوفى عام ١٩١٤م، والتي اشتقها من كلمة (Pragma) الإغريقية القديمة، والتي تعني الفعل القصدي، مع كل سلوك توجهه الإرادة تحت جناح الفكر.

لذلك يجب أن لا نخلط بين براغما (Pragma) وبراكتيكوس (Praktikos) التي منها جاءت كلمة (Practical) الإنكليزية، وجذر هذه الكلمة يعني باللغة الإغريقية القديمة: فعل ورد فعل فقط، دون أي إرجاع لأي معيار أو مقياس (Norms) أخلاقي[1].

---

(1) Hani Nasri and - Vincent Pottev, text in Sociology level 4, Dar AlBayan Al Arabi, Jeddah, 1982, p49.

وهو الخلط الذي ما زالت تمارسه البرغماتية إلى اليوم.

والقصد من وضع (بيرس) لهذا المصطلح هو: عنونة السلوك الأداتي الطاغي في المجتمعات الأمريكية، من أجل البحث عن الأسس الفلسفية والفكرية التي استدعته، وذاك القبول المدهش به، دون أي معيار (Norm) يضبطه ويحدده، خاصة أن هذا الاتجاه الأداتي (Instrumentalist) صار يشبه عند العامة البركتاكالاتية (Practicalaty) التي ترضي الواقعية في التعامل بمعزل عن الشرف والأخلاق، وتعطي نتائج فعالة ومردوداً مفيداً، بعد أن فقد العامة مفهوم الحقيقة التوراتية، نتيجة لشيوع فكر أمثال (توماس جيفرسون) ثم السبنسرية - نسبة إلى هربرت سبنسر - والفلسفة التطورية التي جاءت بعد (جيفرسون)، والتي تؤكد (ميكيافيلية) - نسبة إلى نيكولا ميكيافيلي - الحقيقة، والحقيقة الاجتماعية خاصة، تلك التي تخضع لقوانينها الخاصة في التطور، ولا تدين بأي صلة مع

الحقيقة المسيحية، الناتجة عن (دوغما) الحق الذي جاء مع (ابن الرب)، ومن ثم لا علاقة للحقيقة الاجتماعية والفلسفية بالحق - الإله - المسيحي.

يقول جيفرسون (توماس جيفرسون ١٧٤٣ - ١٨٢٦م) رجل الدولة الأمريكي ورئيس الولايات المتحدة، المؤمن بالله الرافض لإيديولوجيا الدوغما المسيحية حول الحقيقة: «إنّ الاعتقاد بألوهية المسيح ليس ضرورياً، لكي يحب كل منا جاره»[١] أو يكرهه.

لكن (بيرس) الذي حاضر في جامعة جون هوبكنر (Johns Hopkin uni) من عام ١٨٧٩م إلى عام ١٨٨٤م، والذي لم يكمل عملاً مؤلفاً تأليفاً تاماً في حياته سوى المنطق الكبير (The Grand Logic)، بل عمل على بحوث متفرقة مرتكزها الأساسي البحث عن الحقيقة، بمعزل

(١) بيتركاز، تاريخ الفلسفة في أمريكا خلال ٢٠٠ سنة، مكتبة الأنكلو مصرية، ١٩٨٠م، ص٧٣.

عن تقريرية صلتها بالحق، أي الإله المسيحي المتجسد؛ أي بمعزل عن (دوغما) إمكان وجود الحقيقة قبل اليوم الآخر متجسدة في المسيح الرب.

وهو الذي وصف أعماله بأنها بحوث مجردة هدفها جعل الفكر خالياً من الإيديولوجيا، من أجل فكر يمكن الموافقة عليه من كل الناس، بشكل واقعي دون أي حاجة إلى المحاججة في عرضه، مؤكداً أن المنهج المنطقي الذي يستعمله العلم، من استقراء واستدلال وقياس واستنتاج، هو المنهج الوحيد الذي يجب أن نركن إليه في البحث عن الحقيقة.

وبهذا المعنى المحدد يجب طرح مشكلة معيارية الحقيقة، التي يجب، نتيجة اتصالها بالصدق، أن تكون أخلاقية[1]، لا أن تكون أخلاقيتها نتيجة اتصالها بأي دوغما إيديولوجية كنسية أو غير كنسية.

---

(1) Vincent G. Potter, Charles. s. Peirce, on Norms and Ideals, The University of Massachusettes press 1967.

هكذا تداخلت مشكلتا الحقيقة والأخلاق في البرغماتية منذ مؤسسها الأول، ولعل سبب هذا التداخل يرجع إلى الطعنة التي سببها (ميكيافيلي) للأخلاق منذ عام ١٦٤٠م بكتابه: (الأمير) وبكتابه (المطارحات Discorsis) اللذين هدف بهما إلى تقديم واقعية غير محاطة بأي ضبابية كنسية في العلاقات السياسية، بما كان يسمى بأخلاق الفروسية، بالقياس على العضويات الحية في تفاعلها اللاأخلاقي من أجل البقاء، يقول: «أولئك الذين تمكنوا من تقليد الثعلب تقليداً جيداً قد نجحوا أكثر من غيرهم.. فمن يتقن الخداع يجد دائماً أولئك الذين هم على استعداد لأن تنطلي عليهم خدعته»[(١)]، ليصل إلى استنتاج سماه: «حقيقة لا استثناء فيها - وهي: - الغاية تبرر الواسطة»[(٢)]، وما الدين الذي يروج للأخلاق سوى

(١) نيكولو ميكيافيلي، الأمير، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٧٩م، ص١٤٩.

(٢) المرجع السابق، ص١٥١.

أداة من أهم أدوات السيطرة برأيه، يقول: «وسيرى الذين يهتمون بالتاريخ الروماني كيف كان الدين عاملاً مساعداً في السيطرة على الجيوش»[١]، ويأتي (ميكيافيلي) بمثال من عصره بقوله: «أهل فلورنسا لم يكونوا يعتبرون من الجهلة.. ومع ذلك فقد تمكن الراهب جيرولامو - الذي أصبح حاكماً لفلورنسا - من إقناعهم بأنه يتحدث إلى الله.. وعلى هذا يجب أن لا يقنط أي إنسان من القدرة على التأثير»[٢].

وإذ ينتصر ميكيافيلي للأنانية الذاتية، يعطي من خلال (الأمير) القليل من الانتباه إلى المؤسسات التي تشكل الدولة حيث... لا يمكنها أن تقبل إنساناً لا مرجعية أخلاقية تضمنه في سيرته الذاتية، كذلك الأمر بالنسبة إلى المؤسسات الخاصة، كذلك ظهرت مشكلة (المطارحات) أيضاً «في كيفية الانتقال من

(١) نيكولو ميكيافيلي، مطارحات ميكيافيلي، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٢م، ص٢٦٢.

(٢) المرجع السابق، ص٢٦٤.

الأنانية الذاتية للفرد نحو الانخراط في البنى الاجتماعية»[١]، وهذا يعني أنه لا يكفي أن يتخلى الإنسان عن الضمير - سواء كان هذا الضمير هبة إلهية أم من صنع المجتمع- لكي ينجح، فالراهب (جيرولامو) الذي استشهد ميكيافيلي بنجاحه في حكم (فلورنسا)، أعدِم في النهاية حرقاً بساحة المدينة[٢]؟!

وبهذا تتداخل مشكلة الأخلاق مع مشكلة الحقيقة، لذلك لابد من تعريف عملي معياري لا يتنكر لكل ما بهما من سلب وإيجاب، وهذا ما حاوله (بيرس) في أساس (برغماتيته)، واضعاً قاعدتين أساسيتين لما نعنيه عملياً بالحقيقة:

الأولى: أن تكون مطابقة للوقائع (Facts).

---

(1) Peter Bondanella, The Portable, Mechiavelli, Penguin Books, u.s. A1979, p33.

(٢) مطارحات مكيافيلي، مرجع سابق، ص٢٦٤.

والثانية: أن تهدف إلى الوصول إلى يقين علمي.

من أجل الوصول إلى فهم لما هو واقعي، مؤكداً أن الواقع لا يتضمن الوقائع (Facts) دائماً؛ لأن فيه أحياناً كثيرة (De Facto) أي الأمر الواقع، وهذا ما أظهره ببحثه عن كيفية جعل أفكارنا واضحة، فلم يمجد نتائج أي أمر واقع ينتج عن أي فعل، ولا هو عظم نجاح نتائجه، بل وضع نظرية برغماتية تعنى بالطبيعة الديناميكية للأشياء، حيث بها يتجسد البعد المثالي للواقع وقوانين الفكر، بقوة توجه النظام - الموجود بكل وجود - بما فيه عند الإنسان نحو أهداف معقولة سامية.

وهذا هو المعنى العام الذي فهم به (بيرس) الحقيقة في صلتها بالأخلاق، وهي التي أهملها (وليم جيمس)، واحترمها (جون ديوي) دون أن يستغني عن أداتيته التي تشبع بها باعتباره أمريكياً قُحاً.

أما (رسل) فسنرى كيف وجه نقده الشديد لنظرية

الحقيقة البرغماتية هذه، وسآتي على نقده لاحقاً، بعد عرض البرغماتية وخاصة الأمور المتصلة بالمعايير الأخلاقية، وبمعنى الحقيقة فيها.

إذ إن الوصول إلى اليقين العلمي، أو القاعدة الأساسية البرغماتية الثانية، يجب أن تراعي عند (بيرس) الاعتقاد، وهو سواء كان فكرياً أم دينياً، لا يمكنه أن يثبت دون:

١- منهج التماسك المنطقي الذي يتجنب منهج السلطة الذي يفرض على الناس كما كانت تفعل الكنيسة.

٢- مع مراعاة المنهج القبلي (Apriori) الداعم لوجود أفكار قبل تجريبية عند الإنسان بوراثته، وتولد معه، بما يمكننا تسميته اليوم بالغرائز مسبقة البرمجة، خلافاً لتجريبية (رسل) والإنكليز التي تنكر ذلك.

٣- يجب أن لا يخالف الاعتقاد المنهج العلمي،

مثل الأنانية التي دعت إليها (الميكيافيلية)، ونتائج مخالفاتها لعلم النفس والمجتمع والأخلاق الكارثية على أصحابها.

هكذا يمكن تهذيب الإسرافِ الأداتي الأمريكي، ووضعه في إطار فلسفي وأخلاقي أكاديمي موجه، يوجه الجشع الإنساني نحو مآرب أرفع من كل ظن عامي يدعي العملية، لأنه ينقذه من كارثيات الأمر الواقع، وهو ما تشهده (العولمة Globelisation) اليوم من كارثيات لا أخلاقية.

فهل يقود الاستنتاج من كل هذا، إلى ما نريده من الحقيقة بتعريفها الذي بنته الفلسفة الإغريقية القديمة على صدق التوجه نحو حبها -فيلوصوفوس- بإدخال جانب الصدق - الذي هو أخلاقي - في تعريفها، من المنطلق الذي وافق عليه الفلاسفة الإغريق منذ (بارمنيوس) الذي هو الثبات الذي يحكم المتغيرات (Invoriants) والذي لا يحدده (أبستيمولوجياً) سوى

التعريفات الدقيقة للأشياء[١]، شرط أن تكون هذه الأشياء حقيقية، لا (نومانالية) اسمية، تؤدي إلى كل إيديولوجية (دوغمائية)؟.

لكن الذي هز مفهوم الحقيقة وتعريفاتها المختلفة منذ (الإسكلائية) الغربية أي منذ (الأكويني) تحديداً، هو تحريف مفهوم اللوغوس (Logos) الإغريقي الثابت في الفلسفة، بوصفه تعبيراً عن العقل الكلي الذي يربط قوانين الوجود بعضها مع بعض، والتي ينتج عنها - عن هذا الربط - كياننا العاقل الجزئي وما به من قوانين تحكم النفس والروح، وكل الوجود الإنساني العضوي حسب (هرقليطس) القائل: «إن اللوغوس أو العقل الكلي بالرغم من أن الناس يرتبطون به أيما ارتباط، إلا أنهم منفصلون عنه، ولهذا فإن تلك الأشياء التي يواجهونها يومياً تبدو غريبة»[٢]، أقول:

---

(1) Karl Popper, The world of Parmenides, Routledge, London, 2002, p2

(٢) هرقليطس، شذرات هرقليطس، مجاهد مجاهد، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٨٠م، ص٢٣.

«إن ما هز هذا المفهوم هو (النومانالية) الكنسية باعتبار (اللوغوس) هو المسيح عليه السلام، لإعطائه صفة من صفات الخالق»، وقد عبر عن هذه الدوغما النومانالية (Nominalism) (الأكويني) بتقريرية سلطوية لا برهان فيها بقوله: «لقد سمي - المسيح - حقاً لا مجازاً الابن، ومبدؤه سمي بالآب»[١]، والفلسفة المسيحية هي التي سمته (باللوغوس) «مبدلة بالمحرك الأول الأرسطوطالي الصورة الإلهية»[٢].

في حين تؤكد الفلسفة الحديثة أن معنى الشيء في كيفية استخدامه، فمعنى عبارة خمسة مثلاً ليس في مثال الخمسة الأفلاطوني التصوري، بل بكيفية استخدامها نحو خمسة أشخاص أو تفاحات أو أي شيء آخر، يقول (وتغنستاين): «إن عبارة خمسة لا تدل

(1) Anton C. Pegis, Basic writings of saint thomas Aquinas, Random House, N.Y 1944, p326, vol 1.

(2) Etienne Gilson, Element of Christian philosophy, Garden city, N.y 1960, p99.

على شيء هنا، سوى كيفية استعمالها فقط»[١].

وفي ما نحن بصدده نجد أنه في كيفية استخدام مفهوم (اللوغوس)، أو أي مفهوم فلسفي آخر، يتحدد معناه، فإذا استخدمناه بشكل لا محدد بناء على مفهوم غير محدد، وقعنا بالاسمية (Nominalism) التي تشير إلى تصورات لا إلى أشياء واقعية، كالقول: إن أبا الهول (Sphinx) كائن موجود لأن له تمثالاً قرب (الجيزة) بمصر.

وقواعد الاستخدام - قوانينه - يجب أن لا تخالف قوانين العلم، مهما كان هناك سلطة قوية تفرضها على الناس كما أكد (بيرس)، بما يشبه سلطة (محاكم التفتيش) التي وظفت (الأكويني) من أجل القضاء على (الرشدية) في جامعة باريس في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، بهدف الحد من انتشار الإسلام هناك عبر

(1) Ludwig Wittgenstein. Philosophical investigations, Blackwell publishing, u k 2001, p2.

الأكاديمية الفرنسية، لذلك قال (pegis): «لقد كان الأكويني رجل نفي كثير - رافضاً»[١]، كذلك فقواعد الاستخدام البرغماتي الرافضة للمنطق الإسكلائي السابق شرحه مع (بيرس)، تؤكد منهج التماسك المنطقي في كيفية السلوك واستعمال العبارات، من منطلق أن المنطق لا يمكنه أن يكون بمعزل عن الصدق، أي بمعزل عن الأخلاق والحقيقة الفلسفية القائمة على تفضيل الحقيقة وحبها في تجليها بكل أمر أو سلوك.

وهذا لم يلق أذناً صاغية لا في أداتية العامة الأمريكية، ولا عند (وليم جيمس) أو (جون ديوي)، اللذين عكسا في فلسفتيهما البرغماتية، الأداتية السائدة في المجتمعات الأمريكية.

وحين رأى (بيرس) سوء استخدام مصطلحه:

(1) Antone. pegis, op.cit, pxi.

(البرغماتية Pragma) من قبل صديقيه اللدودين (جيمس) و(ديوي) والذي وضعه أساساً للتعبير عن روح الأداتية الأمريكية، ولإعطائها توجيهاً فلسفياً، بعيداً عن (النفعية) الإنكليزية (Utilitarianism)، التي تعتبرها بعض الأكاديميات الأمريكية من مخلفات الاستعمار الإنكليزي لأمريكا من جهة، وسبب الأذية الاجتماعية التي تسببها (الميكيافيلية) التي راحت تتسرب إلى الأداتية الأمريكية من جهة ثانية، لذلك قرر تغيير مصطلحه، الذي أراده تعبيراً عن الروح الأمريكية الجديدة العامة، دون أن يفقد أساس الدلالة على قاعدتي برغماتيته الأساسيتين؛ بمطابقة العملية للوقائع (Facts)، وصلتها الضرورية باليقين العلمي المنطقي المتصل حتماً بالأخلاق، وإلا أصبح (ميكيافيلياً) يقول ما لا يفعل.

ولهذا اختار كلمة (برغماتيسيزم Pragmaticism)[1]

(1) Texts in Sociology level 4, o p.cit, p53.

للدلالة على فلسفته التي تعكس برأيه التوجه الأداتي الأمريكي وتوضحه، بدل براغماتيزم (Pragmatism) التي اختطفها منه كل من (جيمس) و(ديوي) لترسيخ الأداتية الشائعة في المجتمعات الأمريكية، دون توجيه خارج عن انطوائية الكنيسة.

ففي حوار بين (بيرس) و(جيمس) حول محاضرة طلبها هذا الأخير منه لإلقائها في (هارفارد)، بيّن (بيرس) أن الأمور الحيوية (Vitally importance)[1] بالنسبة إلى أفكاره، لا تعني أن الناس لا تستطيع الاستمرار في أداتيتها معها، أو أنهم يموتون إذا لم يسيروا على منهجة فكرهم الأداتي، بل تعني ضرورة أن لا ينجر الإنسان إلى ممارسة أفعال لا يعرف بنيتها النظرية، فدون استقصاء نظري لا يتغير آنياً شيء، لكن في المدى البعيد يصبح السلوك البشري أعمى يتخبط، ربما كما هو حاصل الآن بالقيم الأداتية العاجزة عن

(1) Ibid.

التصدي للإسلام بكل دلالاتها الملتوية الغامضة عليه بالإرهاب[١]، فمن الأمور المهمة حيوياً اليوم؛ أن تفهم الكنيسة أنها قد فقدت قوتيها السياسية والروحية في الغرب، لتتوجه نحو قوتها الاجتماعية والتربوية والإنسانية، وهي ليست بالشيء الهامشي القليل، أما العناد فلن يؤدي بالكنيسة اللاتينية بتدخلها بالسياسة في أمريكا اللاتينية ولبنان، إلا إلى مزيد من المآسي للشعوب اللاتينية، والمسيحيين العرب، العراق مثلاً، فمن الأهمية الحيوية جداً معرفة التبدلات النظرية في العالم، وإن كان من لا يعرف ذلك لن يخسر آنياً حياته، وهذا ما قصده (بيرس) بكل أمر حيوي (Vitally importance).

كذلك من الحيوي جداً (Vitally Important) بالنسبة إلينا نحن العرب، دراسة الفكر البرغماتي بصيغتيه

(١) نومانالية (Nominalism) القرن الواحد والعشرين، ضد كل مسلم لا يقبل باللاأخلاقية النفعية البرغماتية.

الأكاديمية مع (بيرس) والشعبية الآنية مع (ديوي) و(جيمس) - إذا صح التعبير - والتي لا نواجهها كغيرنا من الشعوب عبر العولمة الاقتصادية والفكرية، بل نواجهها مباشرة عبر كل قواها الكولو نيالية القبيحة.

أما وقد امتلأت رفوف مكتباتنا بالدراسات والتراجم الماركسية، وما زالت صور طغاتها تلصق على جدران أحيائنا بين الفينة والأخرى، وهي التي لم تعد تؤثر في شعوب العالم بأكثر من رومانطقية عجائزها بالمقاهي وبتمتمات الحسرات المضحكة على الاشتراكية، بين شيوخها الذين ما زالوا يسمون أنفسهم بالشباب، فلا يوجد لدينا سوى الأقل من القليل عن الدراسات البرغماتية لأعلامها، سواء من أتباع (بيرس) الأكاديميين المحصورين بالجامعات الأمريكية، أو أتباع (جيمس) و(ديوي) الأداتيين على ناقلات الطائرات التي تجوب مياهنا الإقليمية، مدمرة ما استضعف من شواطئ أمتنا باليمن والصومال

والعراق، لترسو بكل زهو، بعد قيامها بكل خساسات قصف ما استضعف من موانئنا، في موانئنا الأخرى المرتجفة من مصير مشابه.

وإني لأعجب من ساستنا في الاقتصاد والثقافة والسياسة، وحتى من عوامنا، من الظن الساذج بأن الاستعمار اليوم مسيحي صليبي، دون أي معرفة عن البرغماتية، وإذا ذكر أمامهم هذا المصطلح الفلسفي ظنوه شتيمة تضاف إلى سلم عادتنا بالنضال على المنابر فقط بأقذع أنواع الشتائم؟!.

لقد أوضح (بيرس) (لجيمس) أن (برغماتيسيسيتيه) يمكن للأداتية الأمريكية العيش دونها، لكنها لن تستطيع تجاهلها إلى ما شاء الله، بقدر ما لا يمكن لسياسيينا تجاهل محاولة دراسة البرغماتية، ولجامعاتنا أن لا تدرسها، دون أن يؤثر ذلك في حياتهم، لكنه سوف يؤثر في كل تغير محتم سوف يواجهونه بالعولمة صاغرين.

أكثر من ذلك، يمكنني القول: إن كل الدراسات الفلسفية ليست دراسات حياتية كالبيولوجيا والطب والصيدلة وعلم الجينات، لكنها حيوية لمن يريد أن يعيش كبشر بعد أن يعالج، ويتناسل ويؤمن كل حياتياته.

لذلك سأقدم فيما يلي البرغماتية العامة بمعزل عن برغماتيسيسية (Pragmaticism) (بيرس)، في هذه العجالة من خلال أطرها العامة التي آمل أن تغري القارئ بمزيد من الاستقصاءات عنها، سواء مما في ذيل هذه الصفحات من مراجع، أم مما يصدر يومياً من الأكاديميات الأمريكية حول هذه الأطر التي سأحاول رسمها الآن.

obeikandl.com